

معادلة البناء الحضاري عند مالك بن نبي

الأستاذة: راقبة عائشة

جامعة الجلفة

المفاهيم الراهنة التي ما فتئت تؤرق العقل الإسلامي مشكلة البناء الحضاري التي راحت تبحث عن مخرج لتغيير واقعنا الحضاري الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، علّما توجد جهوداً تسهم في إخراج مجتمعاتنا من مرحلة السكون والوهن إلى مرحلة الفاعلية والإنجاز.

قضية البناء الحضاري قضية كبرى موجودة في كل عصر، وهي الجزء الذي تتبثق وتتظم فيه مختلف القضايا الإنسانية والقومية، بل إنها المدخل الطبيعي والأساسي لإعادة الحيوية الحضارية للأمة وهو مفهوم ملازم للحضارة يقوم على النظر للمشكلة على أنها كائن حيّ لديه بيئته الزمانية والمكانية والتاريخية لذلك تعددت تعريفات الحضارة وتتنوعت وهي لا تزال مبهمة وإبهام هذه التعريفات عائد إلى اختلاف معناها من أمة إلى أخرى بسبب الاختلاف في الديانة، التاريخ، الثقافة السياسية، الاجتماع وعلى الأرجح تعني الحضارة في أص

من ل اللغة: الإقامة في الحضر، و الحضارة ضد البادية جاء في لسان العرب: " يقال فلان من أهل الحاضرة و فلان من أهل البادية، و فلان حضري، و فلان بدوي... و رجل حَضَرٌ لا يصلح للسفر، و هم حُضُورٌ أي حاضرون، و هو في الأصل مصدر، والحَضَرُ والحَضْرَةُ والحاضرةُ خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار"(1).

أما الجذر حضر في القرآن الكريم فقد تكرر عشرين مرّة بين اشتقاقات مختلفة لا يتسع المقام لذكرها.

ولعل ابن خلدون أول من أرّخ و عرّف الحضارة بطريقة علميّة، فقال: " الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه (أي الترف) ومذاهبه من المصانع والملابس والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة، ضرورة لضرورة تبعية الرقة للملك... "(2).

وأعتقد أن مالك بن نبي أبرز مفكر أولى عناية بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون حتى أنه يوصف بأنه "ابن خلدون الثاني": " إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة. "(3).

أرسى مالك بن نبي قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر المعاصر وظلت المسألة الحضارية قاسماً مشتركاً شغل تفكيره مع كثير من الباحثين، المصلحين والمفكرين. والواضح أن جهود مالك بن نبي الإصلاحية لم تلغ جهود حركات النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي غير أنها كرستها وأعدت النظر فيها. ذلك أنه فهم مشكلات هذه الحضارة من خلال الواقع وآلياته ثم من خلال تداعياته وليس من خلال الآمال والأحكام التي استنفذت طموحاتنا الفكرية والاجتماعية.

مشروع بن نبي الإصلاحي ينطلق من دراسة نقدية واعية للنتاج الحضاري للماضي متجهاً نحو المستقبل، إنه مفكر نهضوي من طراز مختلف يتفرد عن سابقه في منهج تفكيره وفي المشروع الفكري الحضاري الذي أفنى حياته يعمل لأجله.

حاول بن نبي في خطابه الحضاري تجاوز أدبيات الفكر الأصولي، الفكر السلفي وحتى الفكر الحداثي ولم يكتف برؤية الأزمة على أنها أزمة سياسية، أو أزمة عقيدة ووعظ، إنها ليست أزمة ذاتية كما هو الحال مع جمال الدين الأفغاني و محمد عبده... لأنها رؤى افتقرت في نظره إلى الشمولية فجاءت الحلول فيها مجزأة و اتجهت هذه الحلول إلى معالجة مظاهر التخلف لا إلى جوهره (جوهر التخلف).

أوقف مالك بن نبي أدوات منهجية علمية ابتكرها لعلاج مشكلة البناء الحضاري ضمن رؤية أرحب وتحليل أرقى، و ضمن منهجية بحث صارمة في إطار تكوينه العلمي (هندسة الكهرباء) فهندس الفكر والحركة التاريخية و وظف ثقافته المزدوجة الإسلامية و الغربية فانتهت أطروحته إلى النضج والعمق.

"كما أنضجه مالك بن نبي من مفاهيم فكرية وأرساه من منهج تفكير، وطرحه من إشكاليات في فقه التخلف والانحطاط الحضاري من جهة، وفي فقه النهضة والبناء والتجديد الحضاري من جهة أخرى لم يكن في مجمله من ردود الأفعال المتسمة بالظرفية والجزئية والاستعجالية و السطحية.... بل كان من النوع الاستثنائي في عبقريته، الذي يتجاوز كل هذه الضغوط والعوائق الموضوعية إلى استيعاب حركة البناء الحضاري في أبعادها الشاملة التاريخية منها والآنية والمستقبلية..." (4)

معادلة البناء الحضاري واحدة من اكتشافات مالك بن نبي، و تعبير عن رؤية منهجية واضحة استطاع بفضلها أن يدرك الأزمة الفكرية للأمة التي انسحبت على حاضر الإنسان المسلم من طنجة إلى جاكارتا هذا الإنسان الذي يعد رأس مال أساسي في فكر مالك بن نبي لأن البناء يبدأ من داخله ثم يتجه إلى الخارج.

مشكلة كل شعب عند مالك بن نبي هي مشكلة حضارته: "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية و ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها" (5).

ولأن الحضارة هي الإطار الذي ينظم كل الأجزاء الإنسانية: السياسية، الثقافية، الاجتماعية الاقتصادية، الأخلاقية والتاريخية،..... جعلها قضية القضايا لديه، وأولها وافر الاهتمام فتعرض لها بإفاضة في جملة مؤلفاته التي تعد مشاريع "مشاريعه كتب وكتبه مشاريع" (6) والتي جاءت تحت شعار كبير هو "مشكلات الحضارة".

وضع مالك بن نبي معادلة حضارية رياضية هي: الحضارة = التراب + الإنسان + الزمن، والتفاعل بينهما يكون بفكرة دينية تلعب دور الوسيط الكيميائي بين أطراف هذه المعادلة.

مشكلة الحضارة: هي مشكلة الإنسان، مشكلة التراب و مشكلة الوقت، هذه المعادلة الرياضية منظومة مفاهيمية منهجية كاملة ترسخ مبدأ البناء، وهو لا يقوم على التراكم والتكديس وإنما يقوم على البناء والهندسة.

"حضارة = إنسان + تراب + وقت و تحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تتحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل المشكلات الثلاث من أساسها" (7).

والذي يربط أو يدمج هذه العناصر ويحدث التفاعل بينها، بل ويحدث فيها الروح هو الدين الذي يشمل أي عقيدة أو ايدولوجيا أو مبدأ أخلاقي و يستدل على ذلك بدور القرآن في قيام الحضارة العربية الإسلامية، العامل الديني يوجد التجديد في البناء الحضاري، يوجد التطور والاستمرار، وينتهي الأمر بإصلاح الأوضاع.

قال: "ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلاً لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباءً، لا ينفذ به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، الوقت راكدة خامدة وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ، حتى إذا تجلت الروح بغار حراء - كما تجلت من قبل بالوادي المقدس أو بمياه الأردن - نشأت بين هذه العناصر الثلاثة حضارة جديدة فكأنما ولدتها كلمة "اقرأ" التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه و عليه العالم، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قروناً طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده إلى التمدن والرقى" (8).

الدين هنا هو مركب القيم الاجتماعية يسميه مالك بن نبي: "مركب الحضارة" التي تولد مرتين: الميلاد الأول ميلاد الفكرة الدينية، أما الميلاد الثاني يحصل عندما تستحيل هذه الفكرة الدينية في الأنفس أي يحصل عندما تدخل في أحداث التاريخ.

وهو في كتابه "شروط النهضة" يؤصل أفكاره النهضة التي ما فتئ يدعو لها ويكرسها، صدر هذا الكتاب بالغة الفرنسية سنة 1949، وترجم سنة 1957، يحدّد في هذا الكتاب مشاكل العالم الإسلامي والعوامل التي يمكن أن تحقق نهضته وانبعثه، ركز فيه على الإنسان بوصفه العنصر الأول في عناصر تركيب وبناء الحضارة: "وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها وإنما المهم أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إنّ مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه بصفته مصدراً للطاقة" (9).

إن الأمة تعاني ضنكاً حضارياً لأن الإنسان المسلم يعاني تخلفاً في تشكيلة عقله وشخصيته الحالية لذلك أصبحت المجتمعات تنشأ نشوءاً فوضوياً أي أنها فقدت الغائية من حقيقة وجودها وهو لهذا يقترح المداخل الرئيسية لمعالجة ظاهرة العنف والتأخر لإعادة الحيوية الحضارية للأمة بإيجاد نظرية للحضارة، لعناصرها، لأطوارها، لمشكلاتها، لمدلولاتها، لأبعادها، لشروطها.... وحاول في الكتاب السابق مثلاً تحديد الشروط النفسية والموضوعية للبناء الحضاري ضمن أصالة الإنسان المسلم فخصص الباب الأول للحاضر و التاريخ و قدمه بأنشودة رمزية، دور الأبطال، دور السياسة و الفكر، وأنهاه بدور الوثنية.

أما الباب الثاني فخصصه للمستقبل، قدمه أيضاً بأنشودة رمزية، وأفرّد فيه فصلاً للحديث عن التكديس والبناء (من التكديس إلى البناء) وفي فصل الدورة الخالدة تحدث عن شرطي مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني وشرط إمكانية تطبيق المبدأ الأخلاقي الآن.

أما بالنسبة لشروط التجديد الحضاري أو البناء الحضاري فذكرها في العدة الدائمة وتحدث فيها عن أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة وأبدع في شرح كل عناصر التفاعل الحضاري فتحدث في العنصر الأول عن الإنسان الذي يتغير بفكرة التوجيه، توجيه الثقافة (الحرفية في الثقافة، معنى الثقافة في التاريخ، معنى الثقافة في التربية).

ركز في عنصر الإنسان على التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي (الصناعة)، ألح على المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي في بناء الحضارة، توجيه العمل، توجيه رأس المال، مشكلة المرأة، مشكلة الزي، والفنون الجميلة.

وانتقل للحديث عن العنصر الثاني (عنصر التراب) ثم العنصر الثالث (عنصر الوقت) ولم يكتف بهذا القدر من التحليل بل تحدث في نهاية كتابه عن الاستعمار والشعوب المستعمرة، المعامل الاستعماري معامل القابلية للاستعمار، مشكلة التكيف. إذن كان بن نبي محقا إلى حد بعيد حين قال في أواخر حياته " إن الناس لا يفهموني الآن ولكن سأعود بعد ثلاثين سنة ". أي إقلاع حضاري وأي تسارع في حركة البناء الحضاري مرتبط بالوضع النفسي والاجتماعي للإنسان المسلم الذي تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة وتتفوق عليها من جهة أخرى وأي ارتباك في هذه المعادلة يؤدي إلى إرباك عملية البناء الحضاري وينتهي بها الأمر في نهاية المطاف إلى الارتكاس والهرم الحضاري فتتغلب النزعة الجسدية والغرائز الطبيعية وتدخل الأمة مرحلة الاستهلاك المحض لمنجزاتها الحضارية وينتهي بها الأمر إلى العجز عن إصلاح نفسها وعن الإقلاع من جديد. لقد " ظل مالك يهمس في وعي الأمة بلغة القرن العشرين ووضع لهم معادلات وقوانين "الإقلاع الحضاري" ولكن الأمة لم تقلع حضاريا وذلك إما لتقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها، وإما لضعف المحرك المقرر أن يقلع بها، وإما لاجتماع السببين معا، ومع ذلك فقد بقيت هذه المعادلات والقوانين نظريات مفيدة للمحركين الذين يهتمون بانطلاق المشروع الحضاري للأمة " (10).

قبل إنهاء الحديث عن مالك بن نبي وعن إضافته النظرية للبناء الحضاري لا بد من طرح الأسئلة التالية: هل مازالت أفكار بن نبي صالحة لبعث وثبة حضارية في الظروف الراهنة؟ هل أفكار بن نبي عاجزة عن البناء الحضاري؟ أم هناك عجز في من يحمل هذه الأفكار؟ هل تقمصنا أفكار بن نبي؟ إلى أي مدى كان هذا التقمص؟.... هذه الأسئلة وغيرها الإجابة عنها قراءات وبحوث واستكشافات في فكر بن نبي النهضوي.

الهوامش :

- ¹ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، (مادة حضر) ، ج 4، طبعة دار صادر ،بيروت ، 2003م ، ص 197، 198.
- ² - المقدمة ،ابن خلدون ، تحقيق درويش الجويدي ، ط 1 ، المكتبة العصرية ،بيروت ، 1999م ، ص 160.
- ³ - نص حوار مع مالك بن نبي، مجلة الشبان المسلمين ،العدد 171، ربيع الأول ، 391هـ ،ماي 1971م ، ص 16 ، 17.
- ⁴ - عن جمعية مالك بن نبي للدراسات والآفاق الإسلامية ،الطيب برغوث ،فرع دراسة ونشر فكر مالك بن نبي ،متمدى الدراسات الإسلامية ،الجزائر ، 20 صفر 1414هـ ، 09 أوت 1993م.
- ⁵ - شروط النهضة لمالك بن نبي، تر: عمر كمال مسقاوي، عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا 1986م ، ص 19 ، 20.
- ⁶ - محاضرة ،خطة النهضة الحضارية المعاصرة قراءة في المنظور الفكري لكل من مالك بن نبي وفتح الله كولن ،سليمان عشاري،الملتقى الدولي الأول حول البناء الحضاري عند مالك بن نبي وكولن ،أشغال اليوم الأول.
- ⁷ - شروط النهضة لمالك بن نبي ،ترجمة عمر كمال مسقاوي ،عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا ،ندوة مالك بن نبي 1406هـ ، 1986م ، ص 45.
- ⁸ - المصدر نفسه ، ص 51.
- ⁹ - وجهة العالم الإسلامي ،مالك بن نبي ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا ، 1987م ، ص 55.
- ¹⁰ - حديث الحضارة عند مالك بن نبي ،صالح الشورة ،مقالات بن نبي في ميزان النهضة. W.W.W.ALAQSAGATE.ORG